البيوتات العلمية القسنطينية
ودورها في خدمة المذهب المالكي

سعاد رباح: أستاذة محاضرة –ب-
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

1-المقدمة:

تشبث علماء المغرب الإسلامي عموما ومنهم القسنطينيين خصوصا بالمذهب المالكي وأحاطوه بعناية فائقة، إن تأليفا أو فهما أو تدريسا أو تطبيقا في الأقضية والأحكام وما ينزل بالناس من نوازل[1]، هذا المذهب التي تعدّ أصوله أحد الأسباب الرئيسية في صموده أمام المذاهب الفقهية والعقدية الأخرى، التي حاولت محاربته أو مزاحمته في مناطق نفوذه[2].

فقد استطاع هذا المذهب بفضل علمائه أن يفرض نفسه أيام دولة العبيديين الإسماعليين الشيعة، كما استطاع أن ينتصر على المذهب الظاهري رغم تأييد السلطة الموحدية لهذا الأخير[3]، وتضييقها على المذهب المالكي بحصارها للعلماء ومنعهم من الإفتاء به، وحرقها للمدونة وكتب الفروع فيه. ومع ذلك فقد قاوم علماء المالكية وثبتوا في نصرة مذهبهم، وبذلوا النّفس والنفيس ليخدموه، فكرّسوا حياتهم وعقولهم وأقلامهم ومناصبهم، وحتى بيوتهم وأسرهم لنشره واستمراره بين الناس في كل المغرب عموما، وقسنطينة خصوصا، فقد كانت المرجعية المالكية هي المتحكمة في فتاوى فقهاء المغرب الإسلامي، بل حتى على ممارساتهم العملية وتحاكمهم إليه لا يحيدون عنه لغيره، إذ يرون فيه صمام الأمان لهم من الفرقة والفتن، وظهر ذلك في آرائهم حول الإمامة والعلاقة بين

---

[1] _محمد المامي، المذهب المالكي، مدارسه ومؤلفاته وخصائصه، ط1، الإمارات المتحدة، مركز زايد للتراث، 2002، ص93، 127

[2] _عبد الرحمان الشعلان، أصول فقه الإمام مالك –أدلته النقلية-، ط1، جامعة الإمام محمد بن سعود، 2002، ج2، ص

[3] _محمد المنوني، حضارة الموحدين، ط1، الدار البيضاء، دار توبقال، 1989، ص37.

الرّاعي والرعية، واعتزال الفتن وطاعة ولاة الأمور في المعروف، وعدم إعانة الخارجين على السلاطين[1]، وغيرها من المسائل التي تمسكوا بها ضمن روح المذهب المالكي الواسع.

لقد أنتجت البيئة الفكرية بمدينة قسنطينة عددا من البيوتات العلمية التي كان لها دور في المحافظة على استقرار وبقاء المذهب المالكي، وصموده أمام المحن والشدائد التي كادت أن تقضي على وجوده في المغرب الإسلامي عموما، وظهرت تجليات حبهم لهذا المذهب وتفانيهم في خدمته في أعمال كثيرة حفظها لهم التاريخ على مر الزمن.

2-أولا: مظاهر خدمة البيوتات العلمية القسنطينية للمذهب المالكي:

اشتهرت قسنطينة منذ القدم بأنها حاضرة العلم والعلماء، حيث ضمّت بين جنباتها بيوتات هامة اهتم أصحابها بالعلم والفقه على مذهب مالك –رحمه الله-، وتعليمه لأبنائهم منذ نعومة أظافرهم، فأنشأ الله منهم جيلا من العلماء النبلاء الذين تميّزوا بالفضل والفهم والنجابة والرفعة، وترعرعوا على حب المذهب والتشبث به، وورثوا ذلك أبنائهم، فتسلسل فيهم أبا عن جدّ وخلفا عن سلف ولاحقا عن سابق، أفنوا أعمارهم في خدمة المذهب المالكي والذبّ عنه بكل ما أوتوا من قوّة وعلم وجاه ومناصب عالية ضد كل من يريد طمسه أو مزاحمته، من أهل الفرق والمذاهب الأخرى.

فقد شغل علماء قسنطينة سواء كانوا من البيوتات العلمية المعروفة فيها، أو غيرهم لوظائف مهمة ومرموقة وذلك في العصر الوسيط، مثل القضاء والفرائض والإفتاء، والتوثيق أو ما يسمى بالفقه التطبيقي، حيث استخدم فقهاء المالكية هذه الوظائف لخدمة المذهب ونشره، بتطبيقه أحكاما وفتاوى، وتدريسه وتعليمه للناس.

---

[1] البرزلي، نوازل البرزلي، تحقيق: محمد الحبيب هيلة، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2002، ج6، ص178.

ولذلك تظهر تجليات تفانيهم في خدمة المذهب في الفترة الوسيطة من خلال مجموعة من الأمور منها:

أ-التأليف:

حيث لم تنقطع تآليف المالكية على مر العصور الواحد تلو الآخر، فتعددت وتنوعت، وشكّلت بذلك أكبر ثروة فقهية في تاريخ الشرائع، بل لم تخب حركة التأليف حتى في العصر الموحدي الذي شن حملة ضدّ المذهب المالكي وحاصر علماءه، وقد عكست مصنفات المالكية نشاطهم المستمر في خدمة المذهب، حيث شرحوا واختصروا وألفوا كتبا جديدة أبدعوا وتفننوا فيها، واشتغلوا بالتأليف في كل ما له صلة بمذهبهم بدءً بالفقه والأصول، وانتهاء بالحديث وشروحه.

وتحفظ لنا ذاكرة التاريخ أسماء لعلماء قسنطينة الذين ألّفوا وصنّفوا في الذبّ عن المذهب المالكي والانتصار للمنهج الفروعي الذي حاربه الموحدون، ومن هؤلاء الشيخ أبو القاسم الحاج عزوز بن علناس القسنطيني (ت755ه)، من كبار الفقهاء البارزين في الفقه واللغة، كان له من المؤلفات الكثيرة التي خدم بها المذهب في الفقه والفرائض كانت على فروع المذهب وأصوله، منها: «مختصر حسن الفرائض»[1] وكذا الشيخ عمر بن محمد الكماد المعروف بالوزان القسنطيني (ت960ه) ،كان فقيها عالما صوفيا ورعا، معروفا بمشاركته في كثير من العلوم النقلية والعقلية، وكان له كتب تضمنت فتاوى في الفقه المالكي وأصوله وعلم الكلام أبدع فيها،مثل تعليقه على قول لخليل،وكان «يقرر الفقه بنقل اللخمي»، حتى قال عنه تلميذه عبد الكريم الفكّون الحفيد:«كان بحرا لا يجاز في العلوم فقها وأصولا ونحوا وحديثا»[2]، وغيرهم من علماء هذه المدينة الأفذاذ.

وبالموازاة مع هذه الحركة التأليفية التي انصبّت جهود أصحابها على نصرة

---

[1] عبد العزيز فيلالي، مدينة قسنطينة في العصر الوسيط، ص7

[2] _الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ط2، مؤسسة الرسالة، المكتبة العتيقة، 1985،ج1، ص76.

المذهب والاحتجاج به، وتركيز مرجعيته في أوساط العامة، شهدت الفترة الوسيطة نفسها وفي سياق إفشال محاولات المشروع الموحدي الذي يسعى لتقليص ظل المذهب المالكي والحد من سلطة فقهائه على العامة، وضع مؤلفات تبنّت أسلوب الرد والمناظرة إلا أنها لم تكن مصنفات مستقلة في ذلك، إلا ما كان منها كردود على الظاهرية وبعض الصوفية،كمصنف عمر الوزان الكماد" الرد على المرابط عرفة القيرواني وصحبه"[1]وغيره، وأكثر المواضع التي نجد فيها تلك الردود التي تبرز المواجهة، إنما هي كتب النوازل وبخاصة المعيار للونشريسي، حيث أورد في بعض نوازله أجوبة لبعض فقهاء المالكية في هذا العصر في تكفير من خرج عن الجماعة، ويقصد بذلك أتباع المهدي بن تومرت[2] .

ب-التدريس:

لم يدخر فقهاء المالكية بقسنطينة وغيرها من حواضر الجزائر خاصة والمغرب عامة، جهدا في نشر مذهبهم وتعليمه، حيث بقي الفقه المالكي هو المسيطر على مناهج الفقه، وذلك بمختلف مصنفاته كالموطأ، الرسالة والتهذيب والتفريع وغيرها من المختصرات وكتب الفروع التي بقيت متداولة بين الناس،وكذا بتحفيظ متون المذهب وشروحها، وقد لعب هذا دورا كبيرا في صمود المذهب وإيصاله إلى العامة، حيث بسطوه لمختلف الشرائح الاجتماعية وبمختلف لغاتها[3]، ودرسوا فروعه وشرحوها للناس، رغم الضغط والتضييق الذي مورس عليهم من طرف السلطة في هذه الفترة الوسيطة للاختلاف بين المذهبين، فعلى عكس ما نجده في غالب كتب التاريخ التي قامت بتقويم حضور المذهب المالكي وفقهائه في العصر الموحدي مثلا، من انقطاع التعليم والإقراء من كتب الفروع والرأي المالكية، فإن

---

[1] الحفناوي، تعريف الخلف، ج1، ص76.

[2] الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية ودار الغرب الإسلامي،1981،ج2ص453-46

[3] _عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994،ج1، ص75-76.

بعض الدراسات المحققة في كتب التراجم والفهارس، وكذا كتب النوازل ومدونات الفقه، تشير إلى أن التدريس على كتب الفروع المالكية بقي متداولا على نطاق واسع في ذلك الوقت، مما خدم المذهب المالكي خدمة جليلة، وما أسماء مشيخة البيوتات القسنطينية التي سنوردها في هذا المجال إلا خير دليل على ذلك، حيث كانت تلقى الدروس على مذهب مالك في مساجد قسنطينة، كالمسجد الكبير ببطحة السويقة، الذي يعود بناؤه للعهد الموحدي[1]، وكذا في الجامع الأعظم الذي احتوى على خزائن الكتب في المذهب بمختلف العلوم[2].

ج-الاهتمام بالتأصيل الفقهي:

حيث استفاد فقهاء المالكية من توجه السلطة الموحدية عند نبذها للفروع ودعوتها في التمسك بالأصول، إلى بعث الاهتمام بالنص على حساب الرأي، والتأصيل على حساب التفريع، فكان في ذلك خدمة للمذهب المالكي من طرف الموحدين من حيث يدرون أو لا يدرون، حيث استخدم الفقهاء المالكية من قسنطينة وغيرها، هذا التوجه وهذه الدعوى لصالح المذهب، فلم يدعوا الفروع الفقهية ولكنهم لم يقتصروا عليها، وإنما اهتموا أكثر بالدراسات الأصولية، كما انصرفوا للعناية بالتأصيل الفقهي، مما كان له اثر ملحوظ في إثراء المنظومة الفقهية المالكية، وبذلك أسهموا في اطراح صفة الجمود التي طالما ألصقت بالمذهب وفقهائه في تلك العصور.

---

[1] _المهدي شعيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث ، قسنطينة، 1985 ص332.

[2] _عبد الكريم ابن الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح: أبو القاسم سعد الله،ط1،دار الغرب الإسلامي،بيروت 1987،ص36.

د-التعصب للمذهب والالتفاف حوله:

وإن كان التعصب للمذاهب شيئا مذموما، إلاّ أنه في هذه الفترة الوسيطة، وما شهده المالكية من قمع وتضييق من قبل العبيديين تارة، ثم الموحدين تارة أخرى، ومحاربتهم للمذهب المالكي والعمل على القضاء عليه، أدّى بعلماء المالكية في الغرب الإسلامي عموما وفي قسنطينة خصوصا، إلى التعصب لمذهبهم، والتشبث به حفظا لفروعه وأصوله، وتقليدا لإمامه وتلاميذه من أشياخهم، مما ساعد على الحفاظ على مرجعيتهم الفقهية، ومن ثمّ الإبقاء على وحدتهم المذهبية وهويتهم الوطنية، ومن ذلك مثلا اعتبارهم للفقه المالكي أصوله وفروعه من أشرف العلوم[1]،ومنها ما نجده في كتب أصحاب التراجم كقولهم:"كان فلان مصمما على المذهب لا يخرج عن مشهوره". أو"معتنيا بكتب المذهب حفظا وتدريسا"أو "كثير التقليد"، وغيرها من العبارات التي تبرز مدى تمسك الفقهاء في تلك الفترة بمذهبهم وعضّهم عليه بالنواجد.

هـ-توظيف المناصب والخطط التي يتولونها ي خدمة المذهب:

فقد شغل علماء المالكية بقسنطينة وظائف مهمة، مكنتّهم من تبوء المرتبة المنيفة والمنزلة العالية في المجتمع، مثل القضاء والفرائض والإفتاء والتوثيق، أو ما يسمى بالفقه التطبيقي في مقاومتهم وصمودهم أمام المضيقين على المذهب والمحاربين له، مما مكّن من بقائه صامدا في ظل التحديات في تلك الفترة، حيث لم يفرط هؤلاء العلماء في مذهبهم، ولم تثنهم الشدائد والمحن عن الذود عنه، بل راحوا يفتون به ويقضون بين الناس على وفقه، رغم تهديدات السلطة وتشديدها عليهم في ذلك، حيث أضفت هذه الوظائف والخطط الدينية من إمامة وخطابة وقضاء وكتابة عدلية، أو عدالة، على الفقهاء المالكية الشعبية، ولفّت حولهم الناس، فتمكنوا من التأثير فيهم، كما أهلّتهم ليحتلوا مكانة هامة وعالية لدى السلطة أحيانا، كما فعلت الدولة الموحدية بتقريبها بعض فقهاء المالكية المحدثة، -أي الذين يميلون إلى الأثر أكثر من الرأي- باعتبار قربهم من توجهها، ليؤثروا على الشعب، ولكن حتى هؤلاء مع وجودهم في صف الدولة المخالفة لمذهب الناس،

---

[1] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، العبر، دار الكتب اللبناني، بيروت، 1983، ج6، ص20.

وهو مذهب مالك، إلاّ أنهم كانوا مالكيين ولم يتنازلوا يوما عن مالكيتهم،وحاولوا استغلال ذلك لصالح المذهب، مثل ما فعلت مع الشيخ ابن الفكون الجدّ، وكذا ما فعلت الدولة الحفصية بتقريبها العلماء وتوليتهم المناصب الحساسة، كأبي علي حسن أبي الفضل القسنطيني (ت756هـ)، الذي اشتهر بالكتابة وحسن الخط ووجازة اللفظ، فأتقن فن التوثيق، وتولى كتابة الدولة الحفصية فكان من كبار الكتّاب بها[1].

وكان منصب القضاء يتطلب المعرفة بفروع المذهب الذي سيحكم به، وقد كان سببا في تزايد نفوذ فقهاء المالكية بقسنطينة، ومن ثمّ إعطاؤهم الحق في اتخاذ القرار، مما لف حولهم الكثير من الأنصار[2]، وبذلك قدموا خدمة جليلة للمذهب المالكي.

و-الاهتمام بالزوايا وضبط الأسانيد:

حيث عمل علماء المالكية بقسنطينة على نشر طريقة الإمام مالك في الحرص على السنة والاحتياط لها بعدم الأخذ إلا برأي الأوثق، ولذلك نجد مثلا: حسن بن خلف الله ابن باديس، كان يتبع منهج الإمام مالك في ذلك وينشر طريقته، ومن ذلك رفضه الأحاديث الضعيفة المروية في إثبات الشرف من جهة الأم، ردّا في ذلك على الشيخ ابن الأكمه، الذي أثبته في كتابه "سماع الصم»[3].

وقد لعبت الزوايا دورا كبيرا في المحافظة على فروع مذهب مالك[4] ومن ذلك زاوية الفكّون الجدّ، وزاوية الشيخ عمر الوزان، وبن نعمون[5].

ثانيا: أهم بيوتات العلم بقسنطينة وأثرها في استقرار المذهب المالكي:

لقد ظهر ما يسمّى "البيوتات العلمية" في قسنطينة، وذلك لمدة من الزمن، وهو لفظ شاع استعماله في القرن 8هـ/14م من طرف نخبة المغرب الأوسط الذين

---

[1] عبد العزيز فيلالي، مدينة قنسطينة في العصر الوسيط، ص79.

[2] المرجع نفسه، ص79.

[3] محمد بن عبد الرحمن، القسنطيني الأكمه، إسماع في إثبات الشرف من قبل الأم، تحقيق: مريم لحلو، ط2، مطبعة الشروق، وجدة، 2006، ص105-106.

[4] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998،ج2، ص46.

[5] ابن الفكّون، منشور الهداية، ص3، 45، 50، 80.

كتبوا في مناقب أسرهم أو أسر غيرهم، كابن مرزوق وابن خلدون، والمقري، وابن قنفذ، وغيرهم[1].

وإذا تأملنا تاريخ العلم في الحضارة الإسلامية، ألفينا لهذا التسلسل العلمي في أسرة واحدة جذورا ضاربة بأطنابها في القدم، ولكن ستقتصر الدراسة هنا على مرحلة معينة في تاريخ الحضارة الإسلامية في قسنطينة حاضرة العلم والعلماء، وهي المرحلة الوسيطية وبالذات في عصر الموحدين والحفصيين، حيث لعبت هذه البيوتات دورا فعّالا في صمود المذهب واستقراره، بفضل رجالاتها الذين تميزوا بالمنزلة الشريفة والمكانة المنيفة بين الأهالي، لتضلعهم في مختلف علوم المذهب المالكي وفنونه، وتفانيهم في خدمته واستماتتهم في ذلك ومنافحتهم عنه، فمنهم من قتل ومنهم من سجن ومنهم من أحرقت أمامه جهود فكره وما جادت به قريحته لسنين طويلة.

فما هي هذه البيوتات؟ ومن هم أشهر رجالاتها و ومشيخة قسنطينة؟ وكيف خدموا المذهب المالكي؟ هذه مجموعة من التساؤلات نحاول الإجابة عليها في العناصر الآتية:

1-تعريف البيوتات: نعرّف هنا بلفظة البيوتات في اللغة وفي الاصطلاح، لنفهم مدلولها في كلام المؤرخين وأهل التراجم والفهارس،ونقترب قليلا من معرفة ما يرمز له هذا اللفظ في العصر الوسيط.

أ-لغة: البيوتات جمع مفردها بيت، وهو السكن الذي يأوي إليه الإنسان، سواء كان من الشعر أو غيره وقد يعني البيت عيال الرجل وأهله، ومن معانيه الشرف، فيقال بيت العرب أي شرفها [2].

ب-اصطلاحا: يلتقي التعريف اللغوي بمعنى الشرف مع المعنى الاصطلاحي، حيث عرفه ابن خلدون: «معنى البيت أن يعدّ الرجل في آبائه أشرافا مذكورين»[3].

ومنه ما ذكره الزمخشري في أنه إذا ذكر فلان أنه من بيت فلان أو من أهل

---

[1] الطاهر بونابي، البيت الباديسي في العصر الوسيط، ص13، 14.

[2] ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله الكبير وآخرون، القاهرة، دار المعارف، مادة بيت، ج1، ص 393، الفيروز آبادي، القاموس المحيط، بيروت، دار الفكر، 2005، ص 137.

[3] ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار الفكر، ط1، 2003، ص 337.

البيوتات، يعني بذلك أنه من بيت كريم[1].

وعليه فالبيوتات هي أسر ذات مكانة، برزت في مجال معين، أو مجالات متعددة كالعلم والجاه والثروة والنفوذ والولاية، وغير ذلك من الصفات.

فلفظ البيوتات في العصر الوسيط، يرمز إلى مميزات كثيرة تكسبها أسرة معينة وتستمر فيها على مدار ثلاثة أو أربعة أجيال أو أباء، في مجال العلم والفقه والقضاء والتصوف والثروة وغيرها وقد جاء عن عبد الكبير بن هاشم الكتّاني، «أن البيت ما كان له سابقه أي ما سلف من شرف الآباء ولاحقه، أي ما لحق من شرف الأبناء، وبعماد الحال التي هي الثروة، وبمساك الدّهر الذي هو الجاه»[2].

والمقصود ببيوتات العلم أو الأسر العلمية تحديدا، هي الأسر التي تسلسل فيها العلم مدّة معتبرة من الزمن، ورّثه فيها الآباء والأجداد للأبناء والأحفاد، وحتى تكون الأسرة علمية، فيجب أن يتوالى فيها العلم في ثلاثة أجيال على الأقل، أو جيلين إن تعدد فيها العلماء فتجاوز الأربعة [3].

وقد ظهر في العصر الوسيط عدد كبير من البيوتات العلمية ورجالات المعرفة، التي تنافست فيما بينها هذه المكانة المرموقة في المجتمع والنفوذ والامتيازات، حيث يرى كل بيت أنه أرفع من الآخر بأصالته في هذه المدينة وقدم نعمته فيها [4]، و من تلك البيوتات العلمية نجد:

1-بيت ابن باديس:

إنّ المصادر التاريخية كانت ضنينة علينا فيما يتعلق ببيت ابن باديس ومشيخته الذين تعاقبوا عليه قبل القرن 6هـ/12م، وحتى القرن 9هـ/15م، ومع ذلك فقد مكّنتنا بعض الشذرات التي جمعها الباحثون من كتب التراجم والفهارس والأثبات، معرفة –ولو القليل-عن نشأة هذا البيت ورجالاته، وما كتبه

---

[1] الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، بيروت، دار المعرفة، ص 34.

[2] عبد الكبير بن هاشم الكتاني، زهرة الآس في بيوتات أهل فاس، تحقيق: علي بن المنتصر الكتاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002، ص 45.

[3] العربي السوسي، الأسر العلمية في سوس، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2003، ص 22.

[4] ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق الشاذلي النيفر وعبد التركي، تونس 1968، ص 148.

أصحابها عن شيوخه الذين عاصروهم وخاصة في القرن 8هـ/14م وبداية التاسع،كابن قنفذ القسنطيني (ت811هـ)/1407م، وغيره .

وينسب بعض المؤرخين هذا البيت القسنطيني إلى بلكس بن زيري بن مناد الصنهاجي (ت 373هـ /984م)، والمعز بن باديس (ت454هـ/1064م) أي أنّ ظهور هذه الأسرة قديم يرجع إلى القرن 4هـ و5هـ[1] .

إلاّ أن الملاحظ أن شيوخ البيت الباديسي لم يدونوا منقبة بيتهم ولا عرّفوا بأنفسهم على عكس غيرهم، كأمثال، ابن مرزوق الخطيب (ت 781هـ/1379م) وابن قنفذ والمقري (759هـ) وغيرهم الذين عرّفوا ببيوت أجدادهم.

وهو بيت علم وصلاح[2] وأحد البيوتات الحضرية المشهورة بقسنطينة بالعلم والثراء، إلى جانب الجاه الاجتماعي والمكانة الروحية[3] بين الناس، و يؤكد على عراقة هذا البيت ما ذكره عبد الكريم الفكون في "منشور الهداية" عند ترجمته لأحد علماء البيت الباديسي قائلا «القاضي الخطيب أبو العباس أحمد المدعو حميدة بن باديس وهو من بيتات قسنطينة وأشرفها، ...وخلف سلف صالحين علماء حازوا قصب السبق في الدراسة والمعرفة والولاية، ناهيك بهم من دار صلاح وعلم»[4] .

ومن علماء هذا البيت الذين خدموا المذهب المالكي بإسهاماتهم درسا وتأليفا وخطّة من الخطط الدينية، كالقضاء والإمامة وغيرها إبان هذه الفترة الوسيطة نجد:

الشيخ أبو علي حسن بن بلقاسم بن باديس (ق7هـ)، ذكره العبدري في رحلته حين دخل قسنطينة سنة 688هـ/1289م، والتقى به فوصفه بأنه: «شيخ من أهل العلم يذكر فقها ومسائل»[5] .

---

[1] راضية بوسطلة، خزائن المخطوطات، أعلام مدينة قسنطينة، جامعة عبد المجيد المهري، قسنطينة2، ص 3.

[2] عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص 210.

[3] فوزية لزغم، البيوتات والأسر العلمية في الجزائر خلال العهد العثماني، رسالة دكتوراه في التاريخ جامعة وهران، 2013-2014،ص 167.

[4] عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص 57.

[5] أبو عبد الله العبدري، الرحلة المغربية، تح: سعد بو فلاقة، عنابة، منشورات بونة للبحوث

-ومنهم الشيخ أبو علي حسن بن خلف الله بن حسن بن أبي القاسم بن ميمون بن باديس (ت 784هـ/1382م).

-ومنهم الشيخ أبو الحسن بن أبي القاسم بن الحسن بن أبي القاسم بن باديس (ت 787هـ/1385م).

ومن تجليات جهود علماء البيت الباديسي في خدمة المذهب المالكي ومشيختهم فيه، ومكانتهم الرّاسخة ضمن المدرسة المالكية المغاربية، إسهاماتهم في العديد من المجالات منها:

1-التصنيف: وذلك في شتى العلوم والفنون التي تخدم المذهب المالكي وتقربه إلى الناس، ومن أشهر ما صنفوه:

-مخطوط "النفحات القدسية" في مدح قطب الطريقة القادرية الشيخ عبد القادر الجيلاني، وذلك سنة 1356/756م، دليل على الدور الذي لعبته الزوايا والطرق الصوفية أيضا في ذلك الوقت في المحافظة على المذهب وتقوية صموده وتمسك الناس به، وكان ذلك من تأليف الشيخ ابن باديس أبو علي حسن بن أبي القاسم (ت 787هـ) [1].

-شرح مختصر ابن هشام في السيرة النبوية لحسن بن أبي القاسم ابن باديس[2] ، و شرح كتاب ابن فارس في السيرة أيضا ذكر فيه موضوعات من مختاراته[3] .

2-الإفتاء: رغم غياب فتاوى شيوخ البيت الباديسي في نصوص كتب النوازل كالمعيار ومسائل البرزلي وغيرهما، فإن ما جاء في كتب التراجم والفهارس والأثبات من ذكر لشيوخ هذا البيت، وتحليتهم بالمشيخة في المذهب ومنظومته الفقهية، وبكونهم حفاظ المذهب ورواته، لدليل كاف على إسهامهم في خدمة مذهبهم،

2007ص 69، التنبكتي، نيل الابتهاج، ط1،طرابلس، كلية الدعوة 1989ص 155، عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ط2،بيروت، مؤسسة نويهض،1980ص 27.

[1] عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص 57.

[2] عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص 57.

[3] ابن قنفذ، شرف الطالب في أسنى المطالب، تحقيق محمد حجبي، دار المغرب، الرباط، 1976، ص 87، الحفناوي، تعريف الحلف برجال السلف، الجزائر المؤسسة الوطنية للفنون الطبية، 1991، ص 382.

كقول العبدري في رحلته عن الشيخ أبي علي حسن بلقاسم بن باديس «شيخ من أهل العلم يذكر فقها، ومسائل» [1].

كما وصف ابن قنفذ حسن بن خلف الله بن باديس بقوله: «شيخنا الفقيه»[2] كما وصف أحمد السراج (ت 805هـ/1402م)، الشيخ أبا محمد خلف بن علي بن حسن بن أبي القاسم بن ميمون بن باديس وحلاّه «الفقيه الأجمل الأفضل الأكمل»[3] كما وصف ابنه حسن ابن خلف الله (ت 784هـ) بأنه: «الفقيه الرواية... له اعتناء بالعلوم ومشاركة فيها»[4] .

فاشتغالهم بالفقه واعتناؤهم بالفتوى على طريقة مالك، دليل على اجتهادهم، ومشيختهم في المذهب وخدمتهم له بعلمهم الغزير وما يؤكد على ذلك أيضا، استشهاد الشيح ابن الأكمه بأقوال شيوخ البيت الباديسي ضمن اجتهادات باقي العلماء كقوله: « وقال علماء تونس ...وقال علماء بجاية...وقول تقي الدين بن دقيق العيد، وقول أشياخنا بني باديس»[5] .

وقد كشف محمد بن عبد الرحمن ابن الأكمه (ت 807هـ) عن وجود مساهمات فقهية، ومشاركات لشيوخ البيت الباديسي، كفتوى الشيخ حسن بن خلف الله بن باديس (ت784هـ) في ردّه لقضية الشرف من جهة الأم [6].

فهذه الجهود في مجال الفتوى-وإن كانت قليلة بحسب ما جادت به كتب التراجم-إلاّ أن كونها وفق أصول المذهب وطريقته، يدل على جهودهم في خدمة المذهب، ولربما كان ذلك كثيرا منهم ومتكررا إلاّ أن عدم كتابته في كتب النوازل، ربما يرجع إلى أسلوب المشافهة في الإفتاء والإجابة عن أسئلة المستفتين في مساجد قسنطينة أو لإنخراط بعضهم في سلك الصوفية حيث زهدوا في الفتوى والاجتهاد

---

[1] العبدري، الرحلة المغربية، ص 27.

[2] ابن قنفذ، شرف الطالب ، ص 87.

[3] محمد بن عزوز، ضوء السراج، تؤجمة أبي زكريا السراج، ط1، دار ابن حزم، المغرب، 2009، ص 2001.

[4] محمد بن عزوز، المرجع نفسه، ص 201.

[5] محمد بن عبد الرحمن القسنطيني الأكمه، إسماع الصم في إثبات الم في إثبات الشرف من قبل الأم، ص 101.

[6] محمد بن عبد الرحمن الأكمه، ص 105- 106.

بسبب ذلك[1] ، كما حدث مع حسن بن أبي القاسم بن باديس الذي جنح للاعتزال بعد ما كان له من علم غزير، حيث يقول عنه ابن قنفد «وأدرك في حداثة سنه من المعارف العلمية ما لم يدركه غيره في كبر سنه، ولغلبة الانقباض عليه قل النفع به» [2].

إلاّ أن هذا قد لا يكون عذرا حقيقيا لقطع العالم بالعلم ونفع الناس به، إذ لم نجده عند كل من مال إلى التصوف حيث لم يمنع ذلك بعض متصوفة المالكية من ذوي الهمم العالية كالمقري الجد (ت759هـ) من تفتق قريحته عن منتوج علمي غزير، حيث كتب جل مؤلفاته في فترة ميله للانطواء والانعزال عن الناس، عندما جذبته الصوفية أثناء إقامته في الأندلس، ومع ذلك نجد أن الشيخ الباديسي ابن أبي القاسم وكذا ابنه حسن بن خلف الله، قد أسهما في خدمة المذهب من جانب آخر وهو رواية الأحاديث عن الموطأ، حيث اهتما بضبط الرواية، كما كان عليه شأن علماء مالكية المغرب في القرن (8هـ-14م) [3] ولذلك وصفه ابن قنفذ بالمحدث في قوله: «شيخنا الفقيه القاضي الشهير المحدث أبو علي» [4] فضبطهم للرواية وتشددهم فيها، والعناية بها ولو مشافهة والحرص بأخذ بأخذ الأوثق منها، وكذا التمسك بالأصول والاجتهاد وفق الشروط المنصوص عليها في المذهب، كل ذلك من منهج الإمام مالك، وهو دليل على خدمتهم للمذهب المالكي وإسهامهم في تقريبه للناس.

3-التدريس: كما أسهم علماء البيت الباديسي في خدمة المذهب، عن طريق تعليمه، وبث مسائله وأحكامه بين الناس، وذلك في مدارس المدينة أو في مساجدها أو خارج المدينة أيضا، عندما نصّبوا أئمة وخطباء فاستخدموا ذلك لنشر المذهب وترسيخه وتقريبه لطلبة العلوم وللعامة أيضا .

من ذلك ما جاء في "تاريخ الدولتين" عن الشيخ أبي القاسم ابن باديس «جلس الفقيه أبو القاسم القسطنطيني للتدريس بمدرسة الشماعين»[5]. مما

---

[1] عبد اللطيف بونار، البيت الباديسي في العصر الوسيط، ص 26، 30.

[2] ابن قنفذ، شرف الطالب، ص 87.

[3] عبد اللطيف بونار، المرجع السابق، ص 30.

[4] ابن قنفذ، الوفيات،تح:عادل نويهض،ط4،بيروت،دار المنصور،1983، ص 337.

[5] أبو عبد الله محمد الزركشي، تاريخ الدولتين، الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور،

قربهم من العامة ومكنهم من التأثير فيهم بزرع حب المذهب والتمسك به دون غيره.

4-القضاء: وممّا يبرز مكانة شيوخ البيت الباديسي الفقهية واعتلائهم مرتبة الاجتهاد في المذهب، توليهم منصب القضاء والحكم بما تقتضيه فروع المذهب وأصوله وفي ذلك إسهام منهم لتقوية المذهب ضد أعدائه والعمل على نشره وترسيخه في حياة الناس وأقضيتهم، فكانوا يحكمون فيها وفق فقه المذهب المالكي إذ لا يتولى هذا المنصب إلاّ من كان عارفا بفروع المذهب وأصوله، من ذلك وصف ابن قنفذ للشيخ أبي علي حسن بن أبي القاسم ابن باديس (ت 787ه) بقوله « شيخنا الفقيه القاضي الشهير المحدث أبو علي »[1]. كما أعجب ابن خلدون بإبن علي حسين بن أبي القاسم ابن باديس (ت 787ه) في لقائه معه بقسنطينة ووصفه «قاضي قسنطينة الخطيب الكبير أبو علي بن باديس»[2].

وكذا الشيخ حسن بن خلف الله بن حسن بن أبي القاسم بن ميمون بن باديس (ت 784ه) الذي تولى منصب القضاء[3].

فتوليهم لمنصب الإمامة والقضاء والوظائف المخزنية وهي ما يراد بها المكتبات العامة، وغيرها من الخطط مكنهم من التأثير في الناس، إذ هي وظائف تقربهم من الشعب ومن السلطة أيضا، فاستخدموها لخدمة المذهب، وتطبيق مبادئه وأصوله من تحقيق مصلحة الجماعة والبعد عن كل ما فيه فتن وتشتيت، يؤكد ذلك صاحب "منشور الهداية " بقوله:« ويقال إنه اجتمع فيهم أربعون كلهم صاحب منصب، جازوا المناصب الشرعية ببلدهم والمخزنية»[4].

وهي مناصب قربتهم من السلطة أيضا، ولذلك لم يتصادموا معها كما هو

ماضور، تونس، المكتبة العتيقة، 1966، ص 137.

[1] ابن قنفذ، الوفيات، ص 377.

[2] ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983، ص 603.

[3] ابن فنفذ، االوفيات، ص 376، وأنس الفقير وعز الحقير، تح: محمد الفاسي، الرباط، 1965، ص 92-93، التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 160، عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص27، 28.

[4] عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص 57.

الشأن في الدولة الحفصية[1]، وكذا في الدولة المرينية، حيث كانوا مقربين منها، مما خدم المذهب المالكي كثيرا، يؤكد ذلك ما يذكره ابن خلدون عن الشيخ حسن بن خلف الله بن باديس (ت 784ه) الذي حظي بظهير التشريف والتكريم، وكان قاضيا للجماعة، وصار من المقربين من السلطان ابن الحسن المريني عند دخوله إلى قسنطينة وتشكيله المجلس العلمي بها، المتكون من أهل العلم والشورى وهم: حسن بن خلف الله بن باديس وشيخه ابن مرزوق الخطيب (ت 781ه)، وأبي عبد الله الشريف العلوني (ت771ه) [2].

2- بيت آل الفكون:

كما أنجبت لنا قسنطينة علماء آخرين من بيوتات أخرى أسهموا في خدمة المذهب وضربوا فيه بسهم وافر، ومن هؤلاء: بيت آل الفكون أو الفقون التي مرت بالعهد الموحدي ثم الحفصي والعثماني إلى الفترة الاستعمارية.

وقد لعبت دورا مشرفا في المحافظة على المذهب المالكي وخاصة في فترة الحكم العثماني، ومن علماء هذا البيت في الفترة الوسيطة: الفقيه الشاعر أبو علي حسن بن علي بن عمر بن الفكون القسنطيني (ت 602ه-1205م) الذي استخدم مكانته من السلطة وتقربها له في خدمة المذهب المالكي، وقد نظم قصائد في ذلك، فكان من العلماء المالكية الذين أنتجوا شعرا سياسيا، وكانت له رحلة مشهورة نظم فيها قصيدة من قسنطينة إلى مراكش[3].

ومنهم الشيخ أبو زكريا يحي بن محمد الفكون (ت 911ه/1534م) الذي عاش بمدينة قسنطينة خلال العهد الحفصي، وبداية العهد العثماني، ودرس على مشيختها، ومنهم الشيخ العواد التونسي قاضي الجماعة المالكي بقسنطينة.

ومما يبرز مساهمة شيوخ آل الفكون في خدمة المذهب المالكي، تصدرهم للخطابة والإمامة والقضاء وكذا إصدارهم للفتاوى وفق المذهب وتصنيفهم الكتب في فروعه وأصوله ، من ذلك ما يذكره عبد الكريم الفكون الحفيد في كتابه "منشور الهداية"من أن جده هذا- المذكور سابقا- أبو زكرياء الفكون« تصدر

---

[1] ابن قنفذ أنس الفقير، وعز الحقير، ص 156.

[2] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (العبر)، ج7، ص 560.

[3] الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض،ط2، بيروت، دار الآفاق الجديدة 1979ص 334، 336.

للإفتاء في زمن مشيخة أكابر....» وأنه« من العلماء المتقنين وممن له اليد الطولى في الفروع الفقهية، فقد كان من مؤلفاته حاشية المدونة»[1]. وقد تكرر ذكرها في كتاب "نوازل الفكون" التي جمعها محمد الفكون عن جده عبد الكريم الفكون الجد، مما يدل على فقه أبي زكريا يحي الفكون في مذهب مالك، وإسهامه بذلك في خدمته، لاعتماد الناس على كتابه في الفقه المالكي، في الفتوى والقضاء وغير ذلك، حيث استدل العلماء بما ورد في حاشيته وهو ما جاء في "نوازل الفكون" مثلا:« قال يحي الفكون في تعليقته على المدونة» [2].

ومما يدل أيضا على دوره الفعال في خدمة المذهب المالكي، اشتغاله بإمامة مسجد الزيتونة في تونس، وكذا مصاهرته للشيخ المالكي العالم المجتهد البرزلي[3].

ومنهم الشيخ قاسم بن يحي بن محمد الفكون (ت 965هـ/ 1557) الذي تولى القضاء والتدريس في المذهب المالكي[4].

-وكذا الشيخ أبو محمد عبد الكريم الفكون (الجد) (ت 988هـ/1580م) وهو من أبرز علماء المالكية في قسنطينة في عصره، حيث أسهم بدوره في خدمة المذهب خدمة جليلة، بتوليه الإمامة والخطابة في مساجد قسنطينة وفي زاويته التي سميت باسمه، وتدريسه كتب فروع المذهب، كالرسالة والمختصر[5].

وقد استمر عطاء هذه الأسرة حتى عهد الاستعمار، إلا أنه كان أكثر في العهد العثماني، حيث برز دورها الهام في خدمة المذهب المالكي وصموده أمام المذهب الحنفي الذي كان له الحظوى آنذاك باعتباره مذهب السلطة العثمانية.

3- بيت ابن قنفذ:

وهو بيت فقه ومكانة وشرف، ظهرت جهود علمائه جلية في خدمة المذهب

---

[1] عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص 41-42.

[2] محمد الفكون، نوازل الفكون، مخ ورقة 97-130، نقلا عن فوزية لزغم، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني، رسالة دكتوراه في التاريخ، جامعة وهران، 2013-2014، ص152.

[3] فوزية لزعم، المرجع نفسه، ص 152.

[4] عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص 37 وما بعدها.

[5] المصدر نفسه، الصفحة نفسها أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، عبد الكريم الفكون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1986، ص22.

المالكي، وأصل هذا البيت هو بيت ابن الغربي ثم تحول إلى ابن قنفذ وهي تسمية قديمة، كما أورده عبد الكريم الفكون الحفيد، أثناء ترجمته للشيخ أبي الحسن الغربي (ق 10ه) أنه ينتسب إلى الشيخ أبي العباس الخطيب»[1]. وقد رجح أبو القاسم سعد الله أن المقصود بأبي العباس الخطيب هو صاحب الوفيات ابن قنفذ القسنطيني المتوفى سنة 810ه، إذ لا يعرف بهذا الاسم في قسنطينة غيره[2].

ومن علماء هذا البيت الذين ذاع صيتهم، ولعبوا دورا بارزا في خدمة المذهب إن بالتدريس من مدوناته أو بالتأليف فيه أو بنشره وترسيخ أصوله وفروعه عن طريق اشتغالهم بالوظائف الشرعية والخطط الدينية، كالإمامة والخطابة والقضاء، نذكر:

-حسن بن علي بن ميون بن قنفذ(ت 664ه/1265م) ويعتبر المؤسس لهذا البيت، وكان فقيها من فقهاء المالكية البارزين، جد صاحب الوفيات، ومنهم علي بن حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ (ت 733ه/1333م) الذي تولى قضاء الجماعة وكان من فقهاء المالكية، ومنهم:

-حسن بن علي بن حسن بن ميمون بن قنفذ(ت750ه/1349م) من فقهاء المالكية، أسهم بمؤلفاته في استقرار المذهب وانتشاره، مثل "المسنون في أحكام الطاعون" وكذا "المسائل المسطرة في النوازل الفقهية "[3].

ومنهم أبو العباس أحمد بن حسن بن علي الشهير بابن الخطيب وبابن قنفذ القسنطيني (ت 810ه/1407م)، الذي أسهم بفقهه في فروع مذهب مالك وفي عدة علوم، بخدمة المذهب المالكي، حيث كان من فقهاء المالكية البارزين، وذلك بتوليه خطة القضاء بمدينة دكالة بالمغرب الأقصى سنة 769ه إلى 776ه، ثم تقلده خطة الخطابة والإمامة بالمسجد الجامع بالقصبة بعد رجوعه إلى مسقط رأسه بقسنطينة، كما ساهم في دعم المذهب المالكي، عن طريق تصدره للإفتاء وخطة القضاء وفق المذهب، وكذا بتدريسه ونشر فروعه وأصوله وتقريبها للطلبة والعامة أيضا، فكان من مؤلفاته"الوفيات" و"أنس الفقير وعز الحقير" و"أنوار السعادة في أصول العبادة"، وشرح حديث« بني الإسلام على خمس» حيث أورد في

---

[1] عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص56.

[2] أبو القاسم سعد الله، مقدمة منشور الهداية، ص56.

[3] الحفناوي، تعريف الخلف، ج1، ص32.

كل قاعدة من الخمس أربعين حديثا، وأربعين مسألة "[1]، و"الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية "وغيرها من التآليف الجليلة، غير أن ما يبرز دور التصنيف عند ابن قنفذ في خدمة المذهب المالكي، هو تأليفه في الفروع الفقهية المالكية وأصولها، ومن ذلك: « تعريف الدلالة في شرح الرسالة» و« اللباب في اختصار الجلاب» و"تفهيم الطالب لمسائل ابن الحاجب" و«معونة الرائض في مبادئ الفرائض»[2].

3-الخاتمة:

وبعد فهذا غيض من فيض، من جهود هؤلاء العلماء الأفذاذ في خدمة المذهب المالكي وخاصة من أصحاب البيوتات الذين أنجبتهم قسنطينة، والذين أكدوا على حضورهم وحضور المذهب بقوة وبمرجعيته المستمرة في فترات من الزمن ضيق الخناق عليهم، وأريد تقليص ظل المذهب أو محوه أحيانا من الوجود، فوقفوا منافحين عنه، مقاومين صامدين في وجه كل ذلك، ليس بصبرهم فقط، وإنما بشحذ هممهم العالية، فشمروا على سواعدهم، بالتأليف والتدريس والحكم بين الناس، بفروع مذهبهم وأصوله، وزرعوا حبّه في النفوس جيلا بعد جيل بتعليم خصائصه ومميزاته، التي جعلت منه مذهبا حيّا يدخل القلوب ويتغلغل فيها من غير استئذان.

---

[1] الحفناوي، تعريف الخلف، ج1، ص 23-28.

[2] الحفناوي، تعريف الخلف، ج1، ص 23-28.